بناء الرسائل الديوانية في العصرين الفاطمي والأيوبي

(دراسة موازنة)

*د. نوري أحمد عبيريد

تمهيد:

تتضمن مادة (رسل) في العربية ثلاثة مجالات معنوية متقاربة، هي: الامتداد والطول والاتساع أولاً، واللين والسهولة والتحرر من القيد ثانيًا، والتمهل والتدقق والتأني ثالثًا. وقد جاء الفعل (أرسل) ليفيد هذه المعاني جميعًا؛ فهي بمعنى توجيه الشيء من مكان إلى آخر، والإطلاق من القيد، والتوسع والتمديد، كما جاء فعل ترسل ليفيد (تمهل)، وتأتي في سياق القيام بالفعل، وقد دلت كلمة رسالة في الأصل على إطلاق الكلام من مكان إلى آخر، فتعلق بها المعنى في السياقات جميعها. (**ابن منظور، لسان العرب**، 1990م، **مادة: رسل**).

وفي كتاب (كشاف اصطلاحات الفنون) يقول الفاروقي عن الرسالة: « الرسالة في الأصل الكلام الذي أُرسل إلى الغير، وخُصت في اصطلاح العلماء بالكلام المشتمل على قواعد علمية، والفرق بينها وبين الكتاب على ما هو المشهور إنما بحسب الكمال والنقصان؛ فالكتاب هو الكامل في الفن والرسالة غير الكامل فيه» (**الفاروقي، محمد، كشاف اصطلاحات الفنون**، 1963م، ص67).

وقد اتسع معنى الرسالة، فاُستعملت الكلمة في سياقات مخصوصة ودلت على نصوص بعينها، ومن هذا مثلاً أدب الرسائل، الذي اتخذ من الرسالة وسيلته في التعبير والتواصل، وفي هذا يقول صاحب (صبح الأعشى) عن الرسائل الأدبية: « وهي جمع رسالة، والمراد فيها أمور يرتبها الكاتب: من حيث حكاية حال من عدو أو صيد، أو مدح أو تقريض، أو مفاخرة بين شيئين...، وسميت رسائل من حيث إن الأديب المنشئ لها ربما كتب بها إلى غيره مخبرا فيها بصورة الحال»(**القلقشندي، أحمد، صبح الأعشى في صناعة الإنشا**،2/ 263).

*عضو هيئة تدريس بقسم اللغة العربية، كلية اللغات، جامعة طرابلس

ويمكن أن نعدَّ العصر الأموي منعرجًا مهمًا في تاريخ تطور معنى لفظة الرسالة، اتساعًا وارتباطًا بأنماط الكتابة، حيث شهد هذا العصر نشأة ديوان الإنشاء، الذي أصبح منارًا تهوي إليه أفئدة عباقرة الأدباء ومركز إشعاع أدبي أثرى الأدب واستقطب رواده، وتخرَّج فيه كثير من أدباء العربية الكبار، كما كان له دور مهم في ريادة المدارس الكتابية عبر العصور.

تباينت آراء الكتَّاب في تقسيم الرسائل الأدبية، ولكن يمكن حصرها في ثلاثة أنواع كبرى هي: الرسائل الديوانية، الرسائل الإخوانية، الرسائل الأدبية؛ فإذا كانت الرسائل الديوانية – التي يسميها بعضهم بالرسائل السياسية أو السلطانية أو الرسمية تعالج شؤون الإدارة، (عيسى، فوزي، رسائل أندلسية، 1989م، ص28)، فإن الرسائل الإخوانية تصور عواطف الناس ومشاعرهم في الخوف والرجاء والرهبة والمديح والهجاء والتهاني والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتعزية، أما الرسائل الأدبية، فهي التي تعنى بالكتابة في موضوع محدد، ممَّا نسميه اليوم باسم المقالات.

بدأت الكتابة الفنية مع الرسائل، ثم خطت أهم خطواتها مع الكتابة الديوانية، فأصبحت الرسائل الديوانية هي الأصل الذي يقاس عليه النثر، (متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، 1387ه،1967م،445/1)، ومعنى هذا أن الكتابة النثرية لم تصبح كتابة فنية إلا بعد إنشاء الدواوين، وإسناد مهمة الكتابة فيها إلى الكتَّاب المتخصصين الذين تفرغوا لكتابة الرسائل فبرعوا فيها وأجادوا؛ فالخلفاء والسلاطين لا يختارون لرئاسة الديوان إلاَّ من برز في الأدب علمًا وفنًا، واشتهر بالبلاغة والفصاحة وسعة العلم ودقة الفهم.(القلقشندي، صبح الأعشى،101/1)، من أمثال: عبد الحميد، وابن الزيات، والصابيء، وابن العميد، والقاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وابن الأثير؛ الذين احتفلوا بأسلوبها، واختيار ألفاظها، والتدقيق في اختراع الاستعارات الجميلة، والكنايات الطريفة، وأخذوا يطعِّمونها بما جاد من الشعر وبليغ الأمثال، كما ضمَّنوها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والإشارات التاريخية، فبهر بها الكتَّاب والأدباء فضلاً عن القراء وعشاق الأدب والبلاغة، حتى صار تقليدها مدار اهتمامهم، فنسجوا على منوالها وتمثلوا أسلوبها، حيث أصبح هو الأسلوب الأمثل، وتناقلها الأدباء، وتدارسوها وحفظوها.

زد على ذلك ما أحدثه أولئك الكتَّاب في أسلوب النثر من تغيير لم يألفه العرب من قبل، كما فعل عبد الحميد من إطالة التحميدات، والازدواج، والاحتفال إلى حد ما بالصور البيانية، ثم أتى بعده من قرَّب أسلوب الرسائل من أسلوب الشعر، فجاء القاضي الفاضل ومعاصروه من كتَّاب القرن السادس الهجري، وبهذا أصبحت الرسائل الديوانية

تحمل وأداء وظيفتين كبيرتين من وظائف الاتصال الأدبي، وفيهما تتجلى قيمتها الأدبية: إحداهما أساسية هي الوظيفة الإبلاغية أو التعبيرية الانفعالية، والأخرى هي الوظيفة الشعرية. (النجار، محمد، جمهرة رسائل العرب، 69/2).

وقد حفل التراث العربي بالرسائل والكتب التي عُنيت بثقافة الكتَّاب وأصول الكتابة، منها ما اتجه إلى تزويد الثقافة اللغوية للكاتب مثل:(أدب الكاتب) لابن قتيبة ت276ه، و(أدب الكتَّاب) للصولي ت335هـ، ومنها ما عُني بفنِّيات اللغة مثل:(الألفاظ الكتابية)، لعبد الرحمن بن عيسى الهمداني ت320هـ، و(جواهر الألفاظ)، لقدامة بن جعفر ت337هـ، وهناك مؤلفات وجَّهت اهتماماتها إلى العناية بأصول الكتابة مثل: (الرسالة العذراء)، التي كتبها إبراهيم بن الشيباني القيرواني، ت298هـ، إلى إبراهيم بن المدبّر، ت279هـ، فجاءت: "رسالة جامعة واعية لفن كتابة الرسائل؛ حيث تحدث فيها عن صنعة الكتابة، وصفات الكاتب، وطبقات الكلام، وبدائع الصدور في الرسائل، وخواتيم الرسائل، وما لا يجوز إلا في القرآن، وقيمة الدواة والمداد والمبراة والقلم، وفضائل الخط وشرف القلم وغيرها من الموضوعات" (الشيباني، إبراهيم، الرسالة العذراء، 2009م، ص8).

ثم تعاظم هذا الأمر حتى بلغ أوجه في القرنيين الخامس والسادس الهجريين وما تلاهما، فأولى مؤرخو هذين القرنيين اهتمامًا كبيرًا لهذا الفن من الكتابة، ومنهم الصابيء، ت448هـ، في كتابه(رسوم دار الخلافة)، وعلي بن خلف، وهو من كبار رجال الدولة الفاطمية، ويُعدُّ كتابه (مواد البيان)، أوَّل مؤَلف في فن الكتابة الديوانية في مصر الفاطمية، وهو في مجمله "عظيم الفائدة جليل القدر بما حوى من نماذج لكتابة العصر، ورسوم الكتَّاب وطرائقهم في الكتابة، مع بعض نماذج ووثائق تُلقي أضواء كثيرة على النظم الإدارية في الدولة الفاطمية، فضلاً عمَّا جاء به من أبواب متعلقة بالبيان والبلاغة"، (سلاَّم،محمد،الأدب في العصر الفاطمي الكِتَّابة والكتُّاب،ص378).

ومن المؤلفات التي وضعت رسومًا لكتَّاب الدواوين، وبرزت في القرن السادس الهجري كتاب (القانون في ديوان الرسائل)، لابن الصيرفي، ت550هـ، الذي يُعدُّ من أهم مصادر العصر الفاطمي التي وصلت إلينا، وترجع أهمية هذا المؤلِّف إلى أنه عاش في بلاط الخلفاء وكتب أغلب السِّجلات التي صدرت في العقود الأولى للقرن السادس الهجري، كما اهتم فيه بذكر الشروط التي يجب أن تتوفر في موظفي هذا الديوان وتوضيح نظامه الداخلي، وعن ذلك يقول:" وبيَّنت الأمر فيه على ما يقتضيه حكم البلاد المصرية المتعارف فيها الآن دون غيره من الأوقات" (ابن الصيرفي، علي، القانون في ديوان الرسائل والإشارة لمن نال،1990م، ص6).

ومنها أيضًا كتاب (قوانين الداويين)، لابن ممَّاتي، ت606هـ، و(معالم الكتابة ومغانم الإصابة)، لابن شيت، ت 695هـ، و(لمع القوانين المضيئة في دواوين الديار المصرية)، لإبراهيم النابلسي، ت685هـ، و(قانون الترسل)، للصفدي، ت696هـ، و(البُرد الموشا في صناعة الانشا)، لموسى بن حسن الموصلي الكاتب، نحو 700هـ، و(حسن التوسل إلى صناعة الترسل)، للشهاب محمود الحلبي، ت 725هـ، و(الرأي الصائب في إثبات ما لابد منه للكاتب)، لابن العماد، و(التعريف بالمصطلح الشريف)، للعمري، ت 749هـ، و(صبح الأعشى في صناعة الإنشا)، للقلقشندي، ت 821هـ، الذي تميَّز عن سابقيه من كتب هذا الفن بأن جعل مؤلفه شاملاً لكل ما يمتُّ إلى صناعة الكتابة بصلة قريبة أو بعيدة.(**القلقشندي،صبح الأعشى، ص8 مقدمة المحقق**).

وهكذا يتبين لنا من خلال سرد أسماء بعض الكتب التي تناولت نظم كتابة الرسائل، مدى اهتمام كُتَّابها بهذه النظم؛ من حيث مراسيمها وتقاليدها من ألقاب ومقدمات، ودعاء وترجمة وخاتمة...الخ، وبخاصة كتَّاب العصرين الفاطمي والأيوبي؛ الذين وضعوا نُظمًا مرعية لكتَّاب الرسائل لا يجوز الخروج عنها؛ بل وضعوا نظمًا لكل غرض من أغراضها؛ فهناك شروط خاصة لكل من الولايات والعهود والبيعة، من حيث المقدمات والألقاب والدعاء، ومواقعه، ومن حيث الطول والقصر تبعًا لمنزلة المكتوب إليه أو المكتوب عنه، وقد بلغ من دقة مراعاتهم لها أنهم وضعوا سجلاً لتلك الألقاب وغيرها من نظم يرجع إليها الكاتب لصعوبة حفظها، ولتشعبها، والإفراط في طولها.

بناء الرسالة الديوانية في العصر الفاطمي:

تطور الأدب المصرى فى العصر الفاطمي تطوراً كبيراً، كان له أثره القوي في ازدهار الشعر وازدهار الكتابة معًا، فقد عنيت دولتهم بديوان الإنشاء عناية كبرى، واتخذته وسيلة لرفعة قدرها ونشر ذكرها في الآفاق، وعدَّته من مظاهر الاستقرار والأصالة السياسية والإدارية والعلمية.

ولعل وراء هذا الاهتمام عدة عوامل لعل من أبرزها؛ اتساع ملك الدولة الفاطمية وتشعُّب نواحي حياتهم وسلطانهم، ممَّا اضطر خلفائها إلى أن يوجِّهوا همتهم إلى العناية بدواوين الإنشاء وتشريف كتَّابها، بما يتناسب مع غلوهم في إظهار مجدهم.

كما أن الخلفاء الفاطميين اتخذوا من كتَّاب الإنشاء وسائل لنشر مذهبهم الشيعي بين الناس عن طريق من يسندون إليهم المناصب السياسية أو العسكرية أو الدينية،

وحرص الخلفاء الفاطميون على إثبات أحقيتهم بالخلافة من العباسيين اعتمادًا على هؤلاء الكتاَّب، كما اعتمدوا عليهم في إظهار غنى دولتهم وبذخ خلفائهم.

أضف إلى ذلك نظام الحكم الفاطمي؛ فقد حرص رجال الحكم في هذه الدولة على تسجيل كل دقيقة وعظيمةٍ في سجل يخرج من الديوان، فتعيين الوزراء أو الكتَّاب أو القضاة أو الدعاة وغيرهم من أرباب وظائف الدولة كان يخرج به في سجل خاص مطول، وإذا خرج الخليفة لفتح الخليج أو لصلاة الجمعة أو العيد فيخرج السجل بذلك، وفي أعيادهم ومآتمهم كانت تصدر هذه السجلات أيضا، حتى أصبحت هذه السجلات تاريخًا للعصر الفاطمي كله، وكان الكتَّاب يفتنون في إظهار مقدرتهم وكفايتهم في صياغة هذه السجلات، ويتنافسون في هذا الفن؛ فجاءت صورًا رائعةً من صور الكتابة العربية التي تمثل العصر الفاطمي أصدق تمثيل.

ومع كل ذلك لا نستطيع أن نعرف مذاهبهم الفنية في هذا النوع من الرسائل؛ لأن أغلبها فُقدت، ومعالمها طُمست، فابن الصيرفي الذي خدم في الديوان من عام 485ه إلى عام 531ه، يقول عنه ياقوت: «إن له رسائل تزيد على أربع مجلدات فُقدت»،(الحموي، ياقوت، معجم الأدباء،212/17)، وكذلك الشأن في ابن قادوس الذي خدم من بعده ديوان الإنشاء، كما أن القلقشندي على الرغم من شدة إعجابه بدواوين الحقبة الفاطمية وكتَّابها، إلاَّ أننا كثيرًا ما نراه يقفز من الحقبة الإخشيدية إلى الأيوبية مباشرة، والوثائق التي قدَّمها معظمها منقول عن (مواد البيان) لعلي بن خلف سوى بعض رسائل القاضي الفاضل، لا تكاد تكفي في مجملها لنُكوِّن بها رأيًا صحيحًا عن معالم الكتابة الديوانية في تلك المرحلة التاريخية.

وربما كان السر وراء ضياع معظم تراث الحقبة الفاطمية، حين أسقط صلاح الدين دولتهم، وأهدر من تراثهم كل ما يتصل بمعتقدهم الإسماعيلي، وربما لم ينج من هذه المحنة سوى كتب قلائل منها كتاب (مواد البيان) لعلي بن خلف، أما ما يتصل بكتابات القاضي الفاضل، فقد حفظها من الضياع بقاؤه على رأس الديوان في عهد صلاح الدين.

ومع ذلك وبعد الرجوع إلى المصادر التي تحدث عن أدب هذا العصر، والاطلاع على بعض ما بقي من الرسائل الديوانية الصادرة عن ديوان إنشائه، يمكن تلخيص النظم التي سار عليها الفاطميون في رسائلهم في عدة خصال تميزت بها، لعل من أهمها تلك الخصلة البارزة في مقدمات مكاتباتهم الديوانية، فقد دفعتهم عقيدتهم الدينية وتمذهبهم بالمذهب الفاطمي، إلى أن يبدأوا رسائلهم وكلامهم بالحمد لله ثم الصلاة على النبي وعلى الوصي والأئمة من أهل البيت، ويتعمدون أن يذكروا أن محمدًا جدُّ الأئمة، وكما كانوا يبدأون

كتاباتهم وسجلاتهم بحمد الله والثناء عليه والصلاة على النبي والأئمة، كانوا يختمونها بها لم يشذ عن ذلك كاتب من كتَّابهم منذ دخل جوهر مصر إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية، فكأنهم بذلك كانوا يحاولون إثبات نسبهم في كل رسالة من رسائلهم وكل سجل من سجلاتهم، وكأنهم رد على سجلات العباسين في دحض نسب الفاطميين.

وتظهر هذه الخصلة في سجلات الفاطميين أوضح من ظهورها في سائر كتاباتهم الخارجة من دواوينهم، ولعل السبب في ذلك راجع إلى أن هذه السجلات أقرب ما تكون إلى البلاغات الرسمية التي تصدر عن دواوين الحكومة، ففي هذه السجلات التي كانت تصدر عن ديوان الإنشاء تسجيل خطوات الأمام الفاطمي؛ فإذا خرج للصلاة صدر بذلك تسجيل من الديوان، وإذا خرج الإمام إلى فتح الخليج صدر السجل، وإذا انتصرت الجيوش صدر سجل بالفتح، وهكذا وفي كل هذه السجلات تظهر هذه الخصلة بوضوح. (حسين،محمد، في أدب مصر الفاطمية،1950م، ص315،316).

ولابن الصيرفي سجلات كثيرة في هذا الغرض تمتاز بالوصف والإسهاب، ممَّا جعلها معينًا لوصف عادات الخلفاء وتقاليدهم في خروجهم وركوبهم واحتفالاتهم، وكانت هذه السجلات تُكتب وتُرسل إلى الأقاليم، ومنها هذا السجل الذي يعلن فيه وفاة المستعلى، وولاية ابنه الآمر، والذي قريء على رؤوس كافة الأجناد والأمراء، حيث بدأه بالحمد لله» الذي استرعى الأئمة...، وجعلهم مصابيح الشبه إذا غدت داجية مدّلهمة، لتضيء للمؤمنين سبيل الهداية، ولا يكون أمرهم عليهم غُمة، يحمده أمير المؤمنين حمد شاكر على ما نقله فيه من درج الإنافة، ونقله إليه من مبرات الخلافة»، (السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، 1299ه،1/604)، ثم ينتقل إلى الصلاة على رسول الله وعلى أخيه وابن عمه: « أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، الذي كرَّمه الله بالمنزلة العلية، وانتخبه للإمامة رأفة بالبرية، وخصَّه بغوامض علم التنزيل، وجعل له ميزة التعظيم ومزية التفضيل»،(م،ن،ص،ن)، وبعد حديث حزين عن موت المستعلى، يصف السجل تفويض الوزير الجديد كل أمور الدولة، وأن ذلك بوصية من الخليفة الراحل، فقد أوصاه بأن يجعله للإمامة زعيمًا وكفيلاً، ويعلق به أمر النظر والتقرير، وأن يُسند إليه أحوال العسكر والرعية ويناط به أمر الكافة بعزمته الماضية وهمته العلية.(م،ن،1/607).

ومن أمثلة السجلات التي تسجل مظاهر الخلافة الفاطمية، ما كتبه ابن قادوس في وصف خروج الخليفة الفاطمي في عيد النحر، وفيه لا يمل ابن قادوس كغيره من كتَّاب السجلات من الحديث عن الخليفة والوزير وولاء الجماهير لهم، فكأنها دعاية للدولة الفاطمية وعقيدتها.

بدأ الكاتب السجل ببراعة استهلال في فضل الحج، والصلاة على محمد، وأخيه على، والأئمة من ذريتهما، ثم تحدث عن يوم النحر فهو من» الأيام التي كملت محاسنها وتمَّت، وكثرت فضائلها وجمَّت، ووجب تخليد غر صفاتها، وتعين تسطير تأثيراتها»، ثم يصف حشود الجماهير التي خرجت منذ الفجر في جموع الأولياء والأنصار، وأولي العزيمة والاستبصار، ميممين القصور الزاهرة متبركين بأفنيتها، ومستملين بسعادتها».

وبعد هذا الوصف للجمهور، ينتقل ابن قادوس إلى وصف موكب الخليفة، وما تبعه من جند حاشد، مسبغًا على الوزير صفات الثناء والتمجيد، فهو:» السيد الأجل الذي قام بنصر الله في إنجاء أوليائه، وتكفل للإسلام برفع مناره ونشر لوائه، وناضل عن حوزة الدين وجاهد، وناضل أحزاب الكفار وناهد، يقوم بأحكام الوزارة، وتدبير الدولة تدبير أولي الإخلاص والطهارة...، ويُحسن السياسية والتدبير، ويتوخى الإصابة في كل صغير من أمور الدولة وكبير، ويُخلص لله جلَّ وعزَّ ولإمامه، ويكفكف من الأعداء ببذل الجهد لهذمه وحسامه»، ويمضي الكاتب في وصف مضي الموكب إلى المسجد، ووصف الخليفة مصليًا، وخطيبًا، ولا ينسي أن يصفه وموكبه وهو عائد إلى قصوره.

وهكذا يتضح لنا من خلال عرض هذين السجلين مدى الثقة التي حباها الخلفاء لكتَّابها ومقدرتهم وعلو كعبهم في الإنشاء أولاً ؛ فابن قادوس مثلاً، ُمن أماثل الكتَّاب في القرن السادس الهجري كما وصفه القلقشندي(القلقشندي،صبح الأعشى،326/8)، وحملت تلك السجلات وصفًا لكثير من عادات الفاطميين، وتقاليدهم في احتفالاتهم ثانيًا، كما أنها أظهرت صورة من صور الكتابة التي تظهر خصائص الكتابة في العصر الفاطمي، وبخاصة ما يتعلق بنظرة الشيعة إلى الخلفاء، وعقيدتهم في أن الخلافة تورث عن الآباء، وأن الخليفة يرث فيما يرث عن أبيه علومه وأسرار الشريعة، بالإضافة إلى ذلك كله أبانت هذه السجلات ما يدل على عظم ما صار إليه منصب الوزارة من مكانة، وما كان في يد الوزير من سلطان فعلي في الدولة، هذه هي الخصائص التي تفصح عنها ونجدها عند كلِّ كتَّاب هذا النوع من السجلات تقريبًا.

وخصلة ثانية تظهر بوضوح على رسائل العصر الفاطمي الديوانية، وهي التأثر بعقائدهم، فكما تأثر الشعر بالعقائد الفاطمية، تأثرت الكتابة بها تأثيرًا يظهر بوضوح في الرسائل الديوانية، وممَّا يؤيد شيوع هذه الخصلة على الرسائل الديوانية وعدِّها جـزءًا لا يتجزأ منها، ما نجده في رسالة طويلة للمعز أرسلها إلى الحسن بن أحمد القرمطي،(المقريزي، تقي الدين،اتعاظ الحُنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا،1973م،ص251.)، وأيضًا

الرسالة التي أثبتها القلقشندي كاملة في كتابه(صبح الأعشى،434/6 وما بعدها)، وقال: إنها كُتبت في عهد العزيز بالله كتبها إلى عامله بمصر يُبشره بالفتح حين خرج إلى قتال القرامطة بالشام سنة 367ه، ونحن نستطيع أن نتخذ هاتين الرسالتين صورة للكتابة في العصر الفاطمي؛ فالرسالتان تعجان بالاصطلاحات الفاطمية والمعاني الباطنية من مثل: (الناطق) و(الوصي) وأن الأئمة هم أول الفكرة، وأن كل المخلوقات وُجدت للدلالة على أن الأئمة هم مثل العقل، وغيرها من العقائد الفاطمية التي يدين بها الفاطميون، لذا فالرسالتان بالإضافة إلى كونهما رسالتان أدبيتان تبين لنا صورة من صور الكتابة الديوانية في العصر الفاطمي، فهما من الرسائل التاريخية والسياسية، بل هما من أهم الرسائل التي تتحدث عن العقائد الفاطمية وترينا معالم المذهب الفاطمي في تلك الفترة.

وتبرز هذه الخصلة بصورة واضحة على السجلات، التي كان كُتَّابها يلمون بالعقائد، ويؤولون بعض آيات القرآن الحكيم تأويلاً يتفق معها، ويذكرون في كتاباتهم رأي الفاطميين في كل مناسبة وفي كل عيد، فالسجلات التي صدرت في عيد الغدير كانت تنصب على ولاية علي بن أبي طالب والأئمة المنصوص عليهم من بعده، وسجل مأتم عاشوراء كان في الحسين بن علي وما لاقاه أهل البيت من أهوال، وسجل رؤية هلال رمضان في ذكر عقيدة الفاطميين في هلال رمضان، وهكذا كانت هذه السجلات حافلة بالمعتقدات الفاطمية التي لا يمكن أن تصدر عن دولة غير فاطمية المذهب.

ومن ألوان الرسائل الديوانية أيضا: كتب ولاة العهود، التي كانت تبدأ عادة بحمد الله حمدًا فيه براعة الاستهلال، ثم تُذكر الشهادتين، والصلاة والسلام على رسوله الكريم، وعلى آله وصحبه، كل ذلك مغمور بجو الغرض الذي أُنشي له الكتاب، وبعدئذ يؤخذ في الثناء على ولي العهد، وحكمة تنصيبه، ثم يُذكر هدف الكتاب، وهو تنصيب ولي العهد، مبيَّنا حدود مملكته التي صار ولي عهدها، حتى إذا عيَّن ذلك وبيَّنه أوصاه بما يناسب لمقام من وصايا، مجملاً في ذلك حينًا ومفصلاً حينًا آخر، ومن خلال هذه الكتب نستطيع أن نعرف من خلالها إلى أي مدى اتسعت الإمبراطورية المصرية في ذلك الحين، وأن نتبين الحاكم المثالي الذي كان يدور في أذهانهم في ذلك العصر.

وهكذا يتبين لنا أن الرسائل الديوانية في هذا العصر في مجملها متشابهة شكلاً ومضمونًا، وفيها من العبارات المكررة أيضا، التي تكاد تدور في فلك واحد ويظهر ذلك من تضمينهم كتاباتهم أفكار عقيدتهم الفاطمية، التي لا يمل كُتَّاب الفاطميين من تكرير هذه العقيدة وترديدها تمكينًا لها في النفوس، ولعل هذه الظاهرة هي التي تُميز رسائل الكُتَّاب

الفاطميين عن غيرهم من كتَّاب الأقطار الأخرى التي لم تخضع لحكم الفاطميين.

بناء الرسالة الديوانية في العصر الأيوبي:

ازدهرت الحركة الفكرية والثقافية في عصر الدولة الأيوبية ازدهارًا كبيرًا مع انشغال الدولة بالجهاد ضد الصليبين، فكان كما وصفه أحد الباحثين: « عصر إحياء للفكر والثقافة الإسلامية والعربية، كما كان عصر إحياء سياسي». (سلام،محمد،الأدب في العصر الأيوبي، 1974م،ص75).

فالأدب إنما يزدهر ويصفو ويسمو وتتوفر فيه عناصر الخلود في أيام الحروب والمحن، سواء أعبر ذلك الأدب عن نشوة الانتصار والفوز أم عن مرارة الهزيمة وذل الانكسار، وقد كان القرن السادس الهجري عصر حروب طاحنة بين المسلمين والصليبيين خاصة، منذ أن صار الأمر بيد الأيوبيين، فقد كانت الحروب بينهما سجالاً، وفي هذا الجو يزدهر الأدب وتستوي ثماره.

ولم يكن النثر بأقل عزمًا من الشعر فقد أدى دورًا ايجابيًا، ربما كان أشد وأعظم أثرًا من الشعر، ذلك أن الكتَّاب الذين ولوا أمر ديوان الإنشاء في هذه الفترة كانت أقلامهم أسنة وكلماتهم مشهورة ولهم قدرة على رصف الكلام وتحبيره، حتى ليهز النفوس الضعيفة، كما أنهم كانوا في موقع الأحداث، فقد كانا ابن الأثير والعماد الكاتب يدخلان معتركها، ويصطليان بنارها مع القادة والجنود في المعارك، وفي شهور الحصار، وفي ساعات الإعداد والاستعداد، وجمع القاضي الفاضل بين منصبي الوزارة وديوان الإنشاء، وجعله السلطان صلاح الدين المتحدث الرسمي بلسانه في الداخل والخارج، وصار أعز لديه من أهله وولده (ابن كثير،البداية والنهاية، 1974م،24/3)، وهاهو القاضي الفاضل يقول في رسالة عن الفتوحات في عهد صلاح الدين الأيوبي: « فأما الفتوحات الناصرية فقد هطلت قطرًا، بل جرت نهرًا، بل جرت بحرًا، بل درَّت درًا، فما ينقضي يوم جمعة إلا عن تخلق محاريبها، واستجابة دعوة خطيبها، وافتضاض بكر من القلاع» (ابن الديباجي، رسائل الحرب والسلام من ترسل القاضي الفاضل،1984م،ص48،49).

ويُعدُّ العهد الأيوبي امتدادًا للعهد الفاطمي في الأدب بعامة وبفن الرسائل الديوانية بخاصة، فقد كان رئيس ديوان الإنشاء يُلقب في عهد الدولة الفاطمية (بكاتب الدست)، وظل الأمر من بعد هذه الدولة إلى أوائل دولة المماليك، وربما عبر عنه بكاتب الدرج، وحينًا يليه جماعة يُعبر عنهم بكتَّاب الدست(بدوي،أحمد، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ص332).

كما أن العناية بهذا الديوان في عهد الدولة الأيوبية برزت في استمرار تلك النظرة السامية إلى صاحبه، والحرص على اختياره من أسمى الحائزين على صفات الكمال، ولذا صح القول: إن ديوان الإنشاء ظل طوال الحروب الصليبية رفيع المكانة، مُعتنى به أشد العناية، وظل الأمر من بعد هذه الدولة إلى أوائل دولة المماليك.

فما مدى التزام كتَّاب الدولة الأيوبية بالنظم الفاطمية فيما يتعلق بالرسائل الديوانية؟.

تشبهت الدولة الأيوبية بالدولة الفاطمية في كتابة ما يخرج من ديوان الإنشاء من رسائل ديوانية مختلفة الأغراض؛ التي من بينها السجلات، والتقاليد، والمناشير، والرسائل المتعلقة بالحروب الصليبية، وغيرها من رسائل ديوانية.

فقد نحا الكتَّاب الذين جاءوا بعد عصر الدولة الفاطمية في سجلات تقليد الوزراء منحى كتَّاب هذه الدولة: في تمجيد الوزير والثناء عليه، وتفويض أمر الحل والعقد إليه، كما ألفوا كذلك في سجلات تقليد أهل المناصب مناصبهم: من نيابة، وقضاء، وقيادة، وتعليم، وخطابة، وغيرها، أن يبنوا قيمة هذا المنصب، وما فيه من التبعات الجسيمة، وأهميته في حياة الأمة، ويثنوا على من وقع عليه الاختيار، ويقدموا إليه بعض الوصايا التي يستدعيها منصبه .(بدوي،أحمد، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام،ص308).

وبالرجوع إلى المصادر المختصة بهذا الفن، نلحظ أن الافتتاحية في بناء هذا النوع من الرسائل الديوانية لا يكاد يخرج رسمها عن الصور الآتية :(القلقشندي،صبح الأعشى،20/7).

1. الافتتاح بالحمدلة وتكون بحمد الله والثناء عليه ثم الصلاة على نبيه والثناء عليه وتعداد صفاته، ثم الصلاة على آله وأصحابه وتعداد صفاتهم، ثم يقول: أما بعد، وهو انتقال وتخلص حسن من المقدمة إلى الغرض الأساسي، ومن ذلك رسالة للقاضي الفاضل يفتتحها بقوله:" الحمد لله الذي جعل أيامنا حسانًا، وأعلى لنا يدًا ولسانًا، وأطاب محدتنا أوراقًا وأغصانًا، ورفع لمجدنا لواء ولجدنا برهانًا، وحقق فينا قوله: ﴿سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانًا﴾، نحمده على سبوغ نعمته، ونسأله أن يجعلنا من الداخلين في رحمته، ثم نصلي على رسوله محمد الذي أيده بحكمته وعلمه،...، وعلى آله وأصحابه الذين خلفوه فأحسنوا الخلافة في أمته"،(ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب،384/3).

ويبين ابن الأثير العلة في ضرورة افتتاح الكتب الديوانية بالحمد بقوله: " وإنما

خُصصت الكتب السلطانية دون غيرها؛ لأن التحاميد لا يصدر في غيرها، فإنها تضمنت أمورًا لائقة بالتحميد، كفتح معقل، أو هزيمة جيش" (ابن الأثير،المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،1962م،89/1.)، ويرجع تأثر كتَّاب العصر الأيوبي بهذا النوع من المقدمات بما كان عليه أسلوب الرسائل في القرنيين الرابع والخامس، يقول بن خلف:" والفتوحات وهي من أعظم المكاتبات خطرًا، وأجلّها قدرًا لاشتمال أغراضها على إنجاز وعد الله تعالى، والرسم فيها أن يفتتح بحمد الله العفو الحليم، الرحيم،...، ويختم بحمد الله القاضي لأوليائه بالإدالة ولأعدائه بالإزالة، والصلاة على رسول الله ﷺ" (ابن خلف،علي،مواد البيان في ترتيب الكتابة للدولة الفاطمية، 1982م).

2. قد يفتتح الكاتب رسالته بالصلاة على أمير المؤمنين وتعداد صفاته، ومن ذلك ما كتبه القاضي الفاضل في رسالة عن الملك الناصر صلاح الدين إلى الخليفة ببغداد في البشرى بفتح بلد من بلاد النوبة وانهزام ملكها وعساكره، ففي مفتتحها أطنب القاضي الفاضل وأطال في الصلاة على أمير المؤمنين وتعداد صفاته ومآثره، وحقوقه على رعيته .(ينظر نص الرسالة في صبح الأعشى، للقلقشندي، مصدر سابق، 276/8).

3. وأحيانًا تُستفتح الرسائل الديوانية بالدعاء وذكر من يُوجه إليه دعاءه، ولاسيما ما كان مرفوعًا إلى الخليفة أو السلطان مباشرة، ثم يقول بعد ذلك:(المملوك يُقبل اليد الكريمة)، أو(المملوك يُقبل الأرض)، ويتلو عبارات المدح والإطراء، ثم يذكر الغرض مُصدِّرًا بكلمة(نُنهي)، أو(نبدأ)، أو،(بعد)، أو ما شابه ذلك.(ابن الأثير، المثل السائر،139/3).

4. إلاَّ أن من الافتتاحيات المفضلة عند كتَّاب العصر الأيوبي الافتتاح بالقرآن الكريم والأخبار النبوية والشعر، يقول ابن الأثير في ذلك: " ومن محاسن هذا الباب أن يفتتح الكتَّاب بآية من القرآن الكريم أو بخبر من الأخبار النبوية أو ببيت شعر، فيكون تضمينًا كليًا أو جزئيًا بنصف آية" (م،ن،111/3)، ومن ذلك ما كتبه القاضي الفاضل عن صلاح الدين إلى الخليفة المستضيء ببغداد يُبشره بفتح بلاد النوبة والنصرة عليها:" ﴿ولقد كتبنا في الزبور أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾، ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾، فروح وريحان وجنة نعيم وصلاة وتسليم، وكأس يمزجها تسنيم"، ويفسر ابن الأثير ولعهم بهذه الافتتاحيات بقوله: " فإن هذا ما يبعث على الاستماع إليه؛ لأنه يقرع السمع شيء غريب ليس له بمثله عادة؛ فيكون سببًا للتطلع نحوه" (م،ن،98/1).

ولا تكاد تخرج المنشورات التي كان يُرسلها ديوان الخلافة إلى الأقاليم – مؤذنًة ببدء العام الهجري، أو بدء رمضان، أو يوم العيد – عن المنهج التقليدي المتبع: من بدء بحمد الله، والصلاة والسلام على رسوله، وذكر مقدمة تناسب الموضوع، وتصل إليه، ويختم الأمر بالدعاء للسلطان.

كما أن من اللافت للنظر في بناء الرسائل الديوانية الصادرة عن دواوين الإنشاء في العصر الأيوبي، أن الكتَّاب الرسميين التزموا في مكاتباتهم الديوانية بجملة من الألفاظ والتراكيب لا يكادون يفارقونها، يمكن أن نطلق عليها لوازم ديوانية، لكل منها في المكاتبة وضع خاص، وقد أشار القلقشندي إلى أن هذه اللوازم وذكر أنها من مصطلحات الدولة الأيوبية،(القلقشندي، صبح الأعشى،90/7)، ومن ذلك ما يتصل بخطاب الخلفاء، فلا يُذكر اسمهم تعظيمًا لهم؛ بل يحلَّ محلها ألفاظ وتراكيب تدل على مكاتباتهم من مثل: تقبيل الأرض والعتبات العالية وتقبيل الأيادي.

ومنها استخدام ألفاظ ومعان في خطاب الخلفاء تدل الذل والخضوع، كأن يُكني نفسه بالخادم أو العبد المملوك، ومثال ذلك قول القاضي الفاضل في كتاب شفاعة إلى السلطان الملك الناصر: "المملوك يُقبل الأرض أمام المُقر المولوي السلطاني الملكي الناصري، أعز الله سلطانه، وأفاض على الخلفاء برد إحسانه، وأظهر بسطوة سيفه حجة الإسلام وبرهانه، وعمَّر بجهاده ممالكه وأوطانه" (م،ن،ص،ن).

إن كتَّاب العصر الأيوبي تهيأت لهم أحداثًا لم تتهيأ لمن سبقهم في العصر الفاطمي، ونقصد بها حروب الدولة الأيوبية مع الصليبيين، تلك الحروب التي صبغت الأدب بصفة عامة والرسائل الديوانية بخاصة بصبغة تلائم الجو الذي عاشه كاتبها، فقد تكفلت هذه الأنواع من الرسائل بوصف تلك الحروب وماله صلة وثيقة بها؛ مثل وصف الجيوش والآت الحرب والقلاع والحصون وحصارها وهدمها والفتوح والتبشير بها، وطلب النجدة واستعجالها والدعوة للقتال والحض عليه.

ولبيان سمات البناء الفني لهذا النوع من الرسائل الديوانية سنكتفي بعرض فقرات من بعضها؛ فمن ذلك مثلا ما كتبه العماد الكاتب عن صلاح الدين بعد أن استولى الفرنج على عكا وغدروا بأسرى المسلمين قوله:" ...، وللكرام آجال، والحرب سجال، ولله من المؤمنين رجال، والآن فقرت الحميات، وهبَّت النخوات، ووجب على كل مسلم أن ينهض لنصرة الإسلام، ويتدارك ما حدث من الكسر بالجبر والإحكام، ويعيد ما وهي من عقد الفتوح إلى النظام، فأين ذوو الأنفة والحمية، والسهم العلية، والنفوس الأبية؟ أما يهتمون

لصرع من استشهدوا من إخوانهم، أما يثورون لثأر إيمانهم؟ أما تبكي العيون لمن قُتل من أماثلها وأعيانها؟ فإن مصابهم عظيم، ومقامهم عند ربهم الكريم كريم، وأراد الله بذلك تنبيه الهمم الراقدة وإثارة العزائم الراكدة" (أبي شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، 1962م،2/170-171)، ففي هذه الرسالة إثارة للهمم الفاترة، وإنهاض للعزائم المتوانية، وفيها مع العزيمة إيمان المؤمن بالنصر، والدعوة للأخذ بالثار من أولئك الغادرين الذين لا يرعون في الحرب إلاًّ ولا ذمة.

وممّا يتعلق برسائل وصف الحروب رسائل التبشير بالفتوح، التي غالبًا ما أسهب كُتّابها في وصف جيوش المسلمين والآته التي استخدموها في دكِّ حصون الفرنج وما لاقاه هؤلاء الفرنج من مُر الهزيمة على يد القادة، ويأتي على رأسهم السلطان صلاح الدين ورجاله.

ولعل من أشهر هذه الفتوح التي لاقت تبشيرًا بها فتح بيت المقدس، الذي كتب القاضي الفاضل في التبشير به رسائل عدة، ومن أشهرها (الرسالة المقدسية) التي كتبها على لسان صلاح الدين إلى الخليفة العباسي، (ابن خلكان،وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمان،1994م،7/179)، بالإضافة إلى هذا الفتح كانت لصلاح الدين مع هؤلاء الفرنج وقائع عدة لم يغفل القاضي الفاضل الحديث عن واحدة منها؛ لأنه كان عليه بوصفه رئيس ديوان الإنشاء أن يكون قلمه أول الأقلام التي تكتب حول الأحداث التي تقع في دولة الأيوبيين، سواء أكانت هذه الكتب مرسلة إلى أناس داخل الدولة أم كانت مرسلة إلى من هم خارجها.

والملاحظ على رسائل التبشير بالفتوح، أن الحديث فيها غالبًا ما يكون كان حديثًا مطولاً يحمل في طياته إلى جانب التبشير بهذا الفتح، التنويه بقوة الجيش الإسلامي، واطرد في خواتيمها الحث على استغلالها جنسًا من أجناس الدعوة السياسية لبني أيوب ولولاتهم، كما أن العادة جرت بأنها تُكتب لتُقرأ على عامة الناس، وفي هذا كله ما يدل على أنها جنس من المراسلات علاقة التخاطب فيها لا تنشأ للأخبار بالفتح فحسب، بل تجاوز هذه الوظيفة إلى إشهاره، وإلى استغلال الحديث عنه لدعم صورة الحاكم ولتقويته، ومن ثَمَّ تتحول الرسالة إلى حجة دالة على أن الفاتحين جديرون بالحكم، وبالإضافة إلى هذا وذاك تفصح عما يتمتع به كاتبها من قدرات فنية ظهر أثرها في المعاني، وقد شبَّه عبد اللطيف حمزة هذه الرسائل بأنشودة النصر التي يُعبر بها الكاتب عن مشاعر الجماهير تعبيرًا صادقًا عن الحدث وتعظيمه في أسماع الناس، حيث قال: " إن هذه الرسالة الديوانية كانت تشبه من قريب أو بعيد أنشودة النصر التي يُعبر بها الكاتب عن مشاعر الجماهير، فلابد أن يكون تعبيرًا قويًا مفعمًا بالحياة"،(حمزة، عبد اللطيف الأدب المصري من قيام

الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية،ص180).

وبعد عرض نماذج متباينة الأغراض من الرسائل الديوانية الصادرة عن دواوين الإنشاء في العصر الأيوبي، يمكن القول: إنه لا يكاد يُلحظ اختلافًا كبيراً في بنائها العام، مع تلك الصادرة عن دواوين الإنشاء في العصر الفاطمي، ولعل ذلك راجع لأمور عديدة منها:

- إن صلاح الدين خدم في الوزارة الفاطمية أكثر من ثلاث سنوات، كما كان قبل ذلك يشتغل في دواوين الفاطميين، وكان ينوب عن ابن خلال قبل تخليه عن الكتابة، وهذه فترة كافية للاطلاع على نظم وقوانين الإدارة السياسية.
- إن صلاح الدين لم يكن همُّه بعد استقلاله بمصر أن يقوم بتغيير تلك النظم والتقاليد، وبخاصة أنها امتداد للأنظمة العباسية، بل انحصر همُّه في القضاء على المعتقدات الفاطمية.
- إن صلاح الدين اعتمد في ترتيب شؤون وزارته؛ ومنها ديوان الإنشاء على القاضي الفاضل، ومن المعلوم أن الفاضل وصل في دولة الفاطميين إلى رئاسة ديوان الإنشاء من بعد أستاذه ابن الخلال، فكان عمله في الدولة الأيوبية امتدادًا لعمله في الدولة الفاطمية.
- إن كبار الكتَّاب كانوا ممَّن نشأ في عهد الدولة الفاطمية، أو تربى على أيدي رجال هذه الدولة، ممَّا يزكي قول القاضي الفاضل الذي وصف الكتابة في ذلك العهد بأنها كانت غضة طرية.

إلا أنه في المقابل لا يمكن القول: إن هناك تطابقًا كاملاً بين الرسائل الديوانية في الدولتين الفاطمية والأيوبية، فقد ذهب بعض المؤرخين إلى أنه هناك تبايُنًا بين نظم الدولتين، (حسن،هاني،الأدب الصوفي في مصر،ص65)، ولعل التغيير المهم الذي طرأ على نظام الرسالة الديوانية في العصر الأيوبي، يكمن في اختفاء المعتقدات الفاطمية من الرسائل، في حين كانت الرسائل الفاطمية تفيض بالإشارات إلى مذهبهم؛ كالصلاة على علي-كرَّم الله وجهه – وعلى خلفائهم، وتأكيدهم على أحقيتهم في الخلافة التي ورثوها عن النبوة، ومغالاتهم في ذات الحاكم إلى حدِّ التأليه، واعتقادهم أن الإمامة منصب إلهي كالنبوة، وقولهم بعلم التأويل الباطن، حين نجد ذلك كله في الرسائل الفاطمية وغيرها ما يدل على معتقداتهم؛ نرى أن الرسائل الأيوبية تخففت من تلك الإطالة، واهتمت بمتن الموضوع وحذفت كل ما يشير إلى المذاهب الإسماعيلية.

كما اختفت تلك الرسائل التي تُنشأ في مناسبات أعيادهم الخاصة، التي ابتدعوها وما طرأ عليها من تغيير في بعض النظم، لسبب اختلاف نظام الحكم عند الأيوبيين – باعتبارهم سلاطين تابعين للخلافة العباسية – عن نظام الخلافة الفاطمية المستقلة استقلالاً تامًا عن الخلافة العباسية في بغداد.

وعلى هذا يمكن القول: إن الرسائل الديوانية الأيوبية إلى جانب أنها في بنائها الفني شبه كبير بالرسائل الديوانية الفاطمية؛ إلاَّ أنه مع ذلك تمثل فترة جديدة لها ظروفها الخاصة المتمثلة في الآتي:

1. البيئة السياسية وتحول مصر من الدولة الفاطمية الشيعية إلى الدولة الأيوبية السنية، فقد كان لهذا أثره في مسيرة الفكر والحياة الأدبية في ذلك العصر، حيث اهتم الأيوبيون بالحياتين العلمية والفكرية؛ وذلك لمقاومة المذهب الشيعي، وإعادة المذهب السني، وقد كان لهذا وقع على الحياة الأدبية بعامة، والرسائل الديوانية بخاصة.
2. اختلاف الأيوبيين عن الفاطميين في نظام الحكم، فحين كان الفاطميون مستقلين عن الخلافة العباسية، يعهد الخلافة منهم لولده بولاية العهد، ويأخذ البيعة للخلافة الجديد، كان الأيوبيون تابعين-ولو اسمِّيًا – لخلافة بغداد، فلم يعهد لصلاح الدين بالملك من بعده لواحد من أولاده، وإنما قسَّم مملكته عليهم، لعلمه أنهم ينضون تحت الراية العباسية.
3. أعاد الأيوبيين الصلة بين بغداد والقاهرة، فكثرت الرسائل المتبادلة بين صلاح الدين وخلفاء بغداد، في حين أنها كانت شبه منقطعة أو هي منقطعة فعلاً أيام الفاطميين، فدارت أغلب الرسائل الديوانية في هذا العهد حول البيعة، والعهد والإقطاع، والأعياد والاحتفالات الخاصة بهم، وما شابه ذلك.
4. والأهم من ذلك كله، أن فترة حكم الأيوبيين كانت فترة حرب، فمنذ تولي صلاح الدين مقاليد الحكم في مصر حتى توفي سنة589هـ، وهو يجاهد في سبيل الله، وانعكس كل ذلك على أدبهم، ممَّا أحدث فيه تلك الحركة الجديدة والروح الإسلامية، والشعور بحاجة الأمة الإسلامية إلى التكاتف والتعاون لصدِّ عدوان الصليبيين عن البلاد الإسلامية؛ فكانت رسائلهم تدور حول البشارة بالفتح والتهنئة بالنصر، ووصف المعارك، والتحريض على القتال واستنهاض الهمم، وطلب النجدة والعون.

وخلاصة القول: إن التشابه بين نظم الرسائل الديوانية الأيوبية، والرسائل الديوانية

الفاطمية، مرجعه إلى رغبة الحكام الأيوبيين متابعة الفاطميين في تعظيم خلفائهم، وأما التباين بينهما فعائد بالدرجة الأولى إلى مباينتهم لهم في عقائدهم، ومذهبهم الديني، ونظام حكمهم، وليس طريقة ابتدعها الكتَّاب من عند أنفسهم لإحداث تجديد في نظم الرسائل.

وبقي الأسلوب العام للرسالة في العصرين واحدًا تمثِّله المبالغة في الصنعة، والاهتمام ببعض أنواع البديع، كالجناس والتورية، والاعتماد الكثير على حلِّ آيات القرآن، والأحاديث؛ فكتَّاب الدولة الأيوبية ظلوا يسيرون في نفس الاتجاه الذي سار فيه كتَّاب الدولة الفاطمية، بدليل أن رسائل الفاضل في عهد الأيوبيين، لا تختلف من حيث الأسلوب عنها في عهد الفاطميين إلا فيما يتعلق بالمعتقدات والمواضيع، وما يتبعها من نظم لكلتا الدولتين، وقد سار على هذا النهج العديد من الكتَّاب الذين اتبعوا الفاضل في أسلوبه؛ باعتباره وليَّ نعمتهم أولاً – فهم موظفون في وزارته أيام صلاح الدين – ولانتشار سمعته الأدبية بخاصة في هذا الفن ثانيًا، واعتماد صلاح الدين على إنشائه في أموره المهمة ثالثًا.

نتائج الدراسة

1. اهتم المسلمون منذ ظهور الإسلام بالمراسلات التي عُرفت فيما بعد بالمراسلات الديوانية، ثم اتخذت كلمة (الإنشاء) مدلولاً وظيفيًّا خاصًا، أي أنها أصبحت وظيفة لها شروطها؛ بل وُضعت لها رسوم يجب إتباعها في تحريرها.
2. إن الرسائل الديوانية من أرقى أنواع الرسائل، وأجلَّها خطرًا، وأعظمها أمرًا في رأي القدماء، مع أن نصيبها من النثر الفني ضئيل نسبيًا ودون الرسائل الأدبية؛ إلاَّ أنها تتفق معها في أداء وظيفتين كبيرتين من وظائف الاتصال الأدبي، وفيهما تتجلى قيمتها الأدبية: إحداهما أساسية هي الوظيفة الإبلاغية أو التعبيرية الانفعالية، والأخرى هي الوظيفة الشعرية (الأدبية).
3. إن ديوان الإنشاء في العصرين الفاطمي والمملوكي، تركَّزت فيه كل صور البراعة الدبلوماسية والمهارة السياسية والحنكة الإدارية والقدرة البلاغية والثقافة العلمية؛ فمنه تصدر المراسلات الرسمية الخارجية من حكام الدولتين إلى غيرهم من الحكام المسلمين وغير المسلمين، ثم هو سجل للمعاهدات والمهادنات بين هؤلاء الحكام وغيرهم.
4. اختلاف الأيوبيين عن الفاطميين في المذهب الديني؛ ظهر أثره في التباين بين بناء الرسائل الديوانية الدولتين الأيوبية والفاطمية؛ فحين حرص الفاطميون على نشر

مذهب الشيعة، مستعينين على ذلك بوسائل عدة منها الأدب، نجد صلاح الدين يبذل جهده لتصحيح عقائد الناس وردِّهم للعقيدة الصائبة، وقد استخدم لذلك وسائل عدة منها الأدب بعامة والرسائل الديوانية بخاصة.

5. من اللافت للنظر أن أشهر الكتَّاب ظهروا في الدولة الأيوبية، فرغم أن الفاطميين حكموا مصر أكثر من قرنين اعتنوا فيها بديوان الإنشاء، وجذبوا لرئاسته كبَّار الكتَّاب لينافسوا بهم خلفاء الدولة العباسية، فإننا لم نطَّلع على نتاج لهؤلاء الكتَّاب يوازي كثرتهم على طول حكم الفاطميين، ولم يشتهر منهم من وصل إلى شهرة كتَّاب الدولة الأيوبية، ولعل السر في ذلك يرجع إلى أن الدولة الأيوبية دأبت على إماتة الدعوة الإسماعيلية وما يُذكَّر بها، ولو كان ما يُذكَّر بها رسائل أدبية وفنية باعتباره نتاجًا يمثل عقائدهم، ويُخلِّد مآثرهم ويُعظِّم خلفاءهم.

6. يمكن أن تُعدُّ الرسائل الديوانية انعكاسًا للأحداث التي هبَّت على البيئة الزمانية والمكانية والسياسية، ونعني الحروب الصليبية.

7. جنى الأيوبيون في عصرهم ثمار النهضة الفنية التي برزت في العصر الفاطمي، وقد ظفروا فيما ظفروا من هذه الثمار بالقاضي الفاضل أحد كتَّاب دواوين العصر الفاطمي، الذي قرَّبه صلاح الدين واتخذه وزيره وكاتبه.

8. يتضح لنا من خلال الوقوف المتأني على مضامين الرسائل الديوانية، أنها تستحق منا قراءة جديدة تجلو أدبها من كل ما تعلق بها من تهم التعميم والرمي بالإفراط في الصنعة على حساب الفكر والمعاني، وتجلو كذلك مبلغ ما ينبغي أن يكون على مثاله الوزراء والمستشارون ورجال البطانات من المسلمين، وتكشف عن معالم الفكر الملتزم بهموم الأمة وتراثها لكتَّابها، مثل القاضي الفاضل.

المصادر والمراجع

1. ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، الطبعة الثانية، نهضة مصر، القاهرة، 1962م.
2. ابن الدبيباجي، رسائل الحرب والسلام من ترسل القاضي الفاضل، تحقيق: محمد نعش، الطبعة الثانية، القاهرة، 1984م.
3. ابن الصيرفي، القانون في ديوان الرسائل والإشارة لمن نال الوزارة، تحقيق: د.أيمن فؤاد سيد، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، 1990م.
4. ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1994م.
5. ابن شيت، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، تحقيق: الخوري قسطنطين المخلصي، المطبعة الأدبية، بيروت.

6. ابن كثير، البداية والنهاية، الطبعة الثانية، مكتبة المعارف، بيروت، 1974م.
7. ابن منظور، لسان العرب، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، 1990م.
8. ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، جامعة فؤاد الأول، القاهرة، 1953م.
9. أبي شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: د. محمد حلمي، القاهرة،1962م.
10. بدوي، د. أحمد، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، الطبعة الثانية، دار نهضة مصر للطبع والنشر، مصر.
11. حسن، د.علي هاني، الأدب الصوفي في مصر، دار المعارف، مصر، (د.ت).
12. حسين، د. محمد كامل، في أدب مصر الفاطمية، دار الفكر العربي، 1950م.
13. حمزة، د.عبد اللطيف، الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (د.ت).
14. الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، مراجعة وزارة المعارف العمومية، الطبعة الأخيرة، دار إحياء التراث، بيروت، د.ت.
15. خلف، علي، مواد البيان في ترتيب الكتابة للدولة الفاطمية، تحقيق: د. حسين عبد اللطيف، جامعة الفاتح، ليبيا، 1982م.
16. سلام، د. محمد زغلول، الأدب في العصر الأيوبي، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1974م.
17. سلاَّم، د. محمد زغلول، الأدب في العصر الفاطمي الكِتَّابة والكُتَّاب، منشأة المعارف بالإسكندرية، 1974م.
18. السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، دار الوطن، مصر، 1299ه.
19. الشيباني، إبراهيم بن محمد، الرسالة العذراء، تحقيق وتقديم: محمد المختار العبيدي، الطبعة الثانية، مركز جمعة ماجد للثقافة والتراث سلسة آفاق الثقافة والتراث الكتاب، رقم (2) 2009م.
20. عيسى، فوزي، رسائل أندلسية، الطبعة الأولى، منشأة المعارف بالإسكندرية، 1989م.
21. الفاروقي، محمد علي، كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق: د. لطفي عبد البديع، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1963م.
22. القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية.
23. متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد أبو ريده، الطبعة الرابعة، دار الكتاب العربي، بيروت، 1387ه، 1967م.
24. المقريزي، تقي الدين، اتعاظ الحُنفا، بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: جمال الدين الشيَّال، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1973م.
25. نصار، د. حسين، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،1966م.